د. زكري بحوص - جامعة المسيلة - الجزائر

النص والتأويل النفسي

تقديم

لاشك في أن التأويل يتضمن كل فعل قرائي يهدف الى بناء المعنى، وذلك بالاستناد الى أدوات ومرجعيات وقواعد معينة في النظر والعمل. ويلتزم التأويل بشكل كلي بحدود الآليات التأويلية، باعتبارها خلاصة تجارب فردية وجماعية في تأطير الفهم وبلوغ الدلالة، وبالتالي فإن الحالة التأويلية تظهر بصفتها وجودا معرفيا دائم التوسع والامتداد، وتمتلك آليات مختلفة.

لقد ظل علم التأويل آلية داخلية متعلقة بالنص الديني لمدة من الزمن، ولم يخرج من دوائر الدراسات اللاهوتية العامة كقاعدة من القواعد والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النص الديني. حتى جاء المفكر الألماني ، "شلاير ماخر"(*) الذي نقل الهيرمنيوطيقا من دائرة الاستخدام الديني ليكون علما و طريقا لعملية الفهم وشروطا في تحليل النصوص.

ترتكز نظرة "شلاير ماخر" إلى النص على أساس أنه وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ، وبالتالي فهو يشير في جانبه اللغوي إلى اللغة بكاملها، ويشير في جانبه النفسي إلى الفكر الذاتي لمبدعه، وأنه كلما تقدم النص في الزمن كلما زاد غموضا وتعقيدا في الفهم بالنسبة لنا، وصرنا أقرب إلى سوء الفهم منه إلى الفهم، وعلى ذلك لا بد من قيام علم يعصم القارئ من سوء الفهم مهما تقدم الزمن، لذا ينطلق شلاير ماخر لوضع قواعد الفهم من تصوره لجانبي النص، اللغوي والنفسي، فيحتاج المفسر للنفاذ إلى معنى النص إلى موهبتين؛ الموهبة اللغوية، والقدرة على النفاذ إلى الطبيعة البشرية.

انطلاقا من هنا يسعى هذا البحث إلى ربط العلاقة بين النص بوصفه فعلا تواصليا، تفاعليا، توالديا، ومدونة كلامية، والفهم بوصفه فعلا تأويليا فيتعرض لوسائط التأويل النفسية خاصة من خلال رصد وعرض أهم آليات التأويل النفسي للنص.

مفاهيم أولية

1. النص

أ. لغة

النّون والصّاد أصل صحيح يدلّ على رَفْعٍ وارتفاعٍ وانتهاء في الشيء. يقالُ: نصَّ الحديثَ إلى فلان: رَفَعه إليه. والنَّصُّ في السَّيْر أَرْفَعُه. ومِنَصَّةُ العَرُوس منه أيضاً. وباتَ فُلاَنٌ مُنْتَصّاً على بعيره، أي مُنْتَصِباً. ونَصُّ كلِّ شيء: مُنْتَهاهُ. ونَصَصْتُ الرَّجُلَ: استقْصَيْتُ مسألتَه عن الشيء حتّى تستخرجَ ما عنده. وهو القياسُ،لأنّك تبتغي بُلُوغَ النِّهاية. ومن هذه الكلمة النَّصْنَصَةُ: إثباتُ البعير رُكْبَتَيْه في الأرضِ إذا هَمَّ بالنُّهُوض. والنَّصْنَصَةُ: التَّحْريكُ. والنُّصَّةُ: القَصَّةُ من شَعْر الرَّأْس، وهي على مَوْضِعٍ رَفيعٍ.(01)

ب. اصطلاحا

إن النص بحسب رولان بارت "نسج تتخلّله جملة من الوحدات الدالة والمفاهيم القائمة".(02) وأما "تودوروف، فيرى إن النص لا يقع في المستوى نفسه الذي تقع فيه الجملة، كما أنه لا يقع موقعها من حيث المفهوم. وعلى هذا الأساس فإن النص يجب أن يتميز عن الفِقْرة باعتبارها وحدة نمطية من عدة جمل، لذا، يمكن عدُّها علامة من علامات الترقيم. كما أنّ النصّ في تصوّر "تودوروف" يتحدّد باستقلاليته وانغلاقه، كما أنّه ذو محتوى دلالي متجانس متكامل، ويمتاز بالوضوح(03). بينما يرى بنفنيست"أنّ: "الجملة إبداعٌ ليس له تعريف، وتنوّعٌ بدون حدود، وهي الحياة نفسها للغة في أثناء الفعل".(04)

وقد انتهى محمد مفتاح إلى أنَّ النصّ "مدوَّنة حدث كلامي ذي وظائف متعدّدة، وذلك على الرّغم من إقراره المبدئي بأنَّ للنصّ تعاريف عديدة تعكس توجهات معرفية ونظرية ومنهجية مختلفة وانطلاقا من هنا امككنا أن نصف النص بأنه :

- تواصلي: يهدف إلى إيصال معلومات ومعارف ونقل تجارب إلى المتلقي.

- حدث: يقع في زمان ومكان معيّنيْن لايعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التاريخي.

- تفاعلي: على اعتبار أنَّ أهم وظائفه التفاعلية للنصّ اللغوي هي تلك التي تقيم علاقات بين أفراد المجتمع وتحافظ عليها.

- مغلق: ونقصد هنا قسمته الكتابية الأيقونية التي لها بداية ونهاية.

- مدوَّنة كلامية: يعني أنّه ليس صورة فوتوغرافية أو رسما أو عمارة أوزيّاً، وإن استعان الدَّارس برسم الكتابة وفضائها وهندستها في التحليل.

- توالدي: كون الحدث اللغوي ليس منبثقاً من عدم، وإنّما هو متولّد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية، وتتناسل منه أحداث لغوية لاحقة به (05).

فالنص إذن، منعكس لثقافة المجتمع بكافة شبكاته المعقدة عبر التاريخ والجغرافية والعلاقات بين الأفراد أي أنه ذاكرة ملخصة للنظام المعرفي للمجتمع. والنص ايضا، مجموعة من العلاقات اللغوية التي تخدم مجموعة أفكار أو مفاهيم قابلة للتفسير والشرح والتأويل.

02. التأويل

تتفق المعاجم على أن التأويل في اللغة العربية هو التعريف والشرح والترجمة والتعبير، وبمعنى عام هو تفسير ما يؤول إليه الشيء. نقول: آل يؤول ومآلا أي رجع، وأول إليه الشيء: رجعه. وفي الشريعة التأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله تترجم كلمة التأويل إلى (الهيرمينوطيقا).

تدل كلمة (هيرمينوطيقا) في اليونانية على أفعال خطابية متعددة نطق، إعراب، إفصاح، إثبات، تفسير، ترجمة.

والتعبير عن هذه الأفعال الخطابية هو الانتقال من المنطوق إلى الدلالة التي ينطوي عليه وبالتالي، فإن الكلمة (هيرمينوطيقا) كانت تحمل هذه الفكرة في الحصول على معنى من خلال كلام منطوق.

فالهيرمينوطيقاأذن ، هي فن التعبير عن أشياء النص(صور ، أفكار ، خواطر ....) بتفسيرها وتبيانها وايضاح معانيها... كما نجد اللاحقة (طيقا) .. والتي تعني التقنية.. فهي تستعين بمجموعة من الآليات والوظائف للكشف عن المعنى في النص أو في الظاهرة وتتبدى هذه التقنيات في اللغة والمنطق والأساليب البيانية من رمز واستعارة ومجاز بهذا المعنى جاز لنا تعريب الهرنونيطيقا بفن التأويل(06).

ومن المعلوم أن التأويلية ارتبطت في بداياتهابالنص الديني، وجاءت كتعبير عن الحاجة إلىفهم طبيعة النصوص وكيفية تفسيرها واستعمالها، خاصة النصوص الدينية مثل الكتابات المقدسة أو النصوص الفقهية والتي كانت تضطلع بها معارف أخرى مثل علم الكلام أو اللاهوت وفقه اللغة وسرعان ما تجاوزت التأويلية هذا المعنى الضيق لتشمل قراءة النصوص بشكل عام أيا كانت طبيعة هذا النصوص.

ومن المجالات التي انتقلت إليها الهرمونيطيقا مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية والنفسية الأمر الذي جعلها منهجا يسعى إلى بلوغ الموضوعية في هذه الدراسات بنفس الطريقة التي وصلت من خلالها العلوم المادية إلى الحقيقة من هنا كان للهرمينوطيقا بعدا ابستيمولوجيا شمل مجال العلوم الانسانية عامة.

آليات التأويل النفسي للنص

يقوم التأويل على اللغة ويشترطها في الآن ذاته؛ باعتبار أن اللغة هي وسيلة وأداة التأويل وموضوعها. ويتجه التأويل إلى مساءلة النص لغويا، على اعتبار اللغة مسلكا للمؤلف في التعبير عن فكره، هذا الاستخدام الخاص هو ما يشكل الجانب الذاتي للغة. ويظهر لنا من هنا أن التأويل يشتغل على فحص النص داخليا، وربطها بسياقها العام خارجيا، وأنه يطمح إلى تتجاوز التصورات القديمة لفهم النص، بصبر مستوياته التي يتضمنها إلى فهم الظواهر الاجتماعية، والسلوكات الفردية والأحداث التاريخية، والإبداعات الفنية والجمالية، هذا التحول الذي شهده التأويل في فهم النص ابتدأ مع (شلاير ماخر) الذي نجده يميز بين منهجين في الممارسة التأويلية هما :

منهج التأويل اللغوي

الذي يعالج النص أو أي تعبير كان انطلاقا من لغته الخاصة،و يبحث عن معنى الخطاب بمساعدة اللغةلأن النص يتعذر فهمه وتأويله إلا في اطار علاقته باللغة التي تمكننا من إدراك معنى الخطاب . لأن النص عبارة عن وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى الملتقي ، كما أن اللغة هي الجانب الموضوعي في النص وهي التي تجعل الفهم ممكنا(07)

منهج التأويل النفسي

يرد المعنى إلى المؤلف، ويسعى إلى استعادة هذا المعنى الذي يراه ماثلا في النص. ويهدف إلى إدراك التجربة الذاتية للمؤلف في كليتها، فالنص ينتج عن التجربة الفردية والذاتية للمؤلف، وهي التجربة الدالة على النشاط الذهني، أي اعتبارالنص نتاجا للنفس، من أجل التوافق مع باطن المؤلف وإعادة بناء العملية المنتجة للخطاب. ذلك لأن أي نص يشير إلى اللغة بحالها، فمن حيث هو وسيط فإن وظيفته هي نقل فكر المؤلف أي يشير الى الفكر الذاتي للمؤلف في اطار تاريخي موضوعي للنص عن طريق الكشف عن مكامن النص و أبعاده. إنتاريخية النص وتقدمه في الزمن يجعله دوما اقرب لسوء الفهم، على هذا الأساس، ينبغي أن يتأسس الفهم انطلاقا من اللغة كإطار موضوعي يجعل الفهم ممكنا وانطلاقا ايضا من ماهو نفسي ذاتي يعكس التجربة الخاصة للمؤلف، إذ أن كل نص هو فعل إبداعي كما أن القراءة هي أيضا فعل إبداعي، ثنائية النص والقراءة هي بمثابة مفاوضات نابعة من قلقين : أولهما القلق في أن نفهم والذي لأجله نكتب، وثانيهما القلق في أن نفهم ولأجله نقرأ(08) تأسيسا على ما سبق نجد إن منهج التأويل النفسي الذي يعتمد على بيوغرافيا المؤلف، حياته الفكرية والعامة والدوافع والحوافز التي دفعته للتعبير والكتابة، فهو يموقع النص في سياق

حياة المؤلف، وفي السياق التاريخي الذي ينتمي إليه. لقد أدت الممارسة التأويلية إلى بروز تيارين :

التيار الأول: يمنح السلطة للمؤلف بوصفه مصدر المعنى تمنحها في الوقت نفسه للمؤولبعبارة أخرى فإن التأويل ليس ملكا للقارئ ، وإنما هو ملك للمؤلف فيغدو فعل التأويل هو ذاته فعل التأليف، وقد ارتد على ذات، وكرر عباراته تكرار المرآة للصورة المنعكسة عليها، "وقد فرضت الأولوية التي منحت لمقاصد المؤلف والمستقبلين على هذه التأويلية أن تظل محصورة في إطار نزعة نفسانية، حتى وإن لبست لبوس حوار بين الذاتيات المتفاعلة"(09).

التيار الثاني: نشأ بفعل جملة من التحولات المعرفية التي طرأت على الدرس السيكولوجي، والدرس السوسيو تاريخي ... ونتيجة لذلك انتهت هذه النظرة القديمة للغة إلى نظرة جديدة قوامها الشك في اللغة. إذ لم يعد الدال بريئا نقيا،ولم يعد النص تمثيلا أمينا لروح الكاتب، والعصر والواقع، وإنما صار ينظر إليه بوصفه مراوغا لا يعرف الوحدة والتجانس يعمل ضد نفسه، يقول ما لا يعنيه، ويعي ما لا يقوله، ناقص يمتلئ بالثغرات، ومن ثم صارت قراءة التعارض لا تجدي نفعا مع مثل هذه المراوغة، وتحول التأويل إلى (عنف) يمارس على الخطاب، حتى ينطقه بالمسكوت عنه، وتحولت القراءة الموحدة إلى قراءة مزدوجة، وغدا التأويل في حاجة إلى الانفصال عن النص، والتباعد عنه، لا التوحد به، والتماشي معه. ذلك أن العلامات حين تفقد براءتها، وتمارس المراوغة تحتاج إلى فعل تأويلي يعيد كتابة النص، ويملأ فراغاته، ويكشف إضماره، ويرفع الأستار عما يراد له أن يبقى سرا محجوبا، وبذلك تغدو الهرمنوطيقا الحديثة وسيلة للسعي لتخليص التأويل من وجوده الطفيلي الهامشي بالقياس إلى النص الإبداعي، ولإثبات أهميته في إنتاج النص الذي يتحدد بحسب استقبالنا له فالقراءة إذا تتضمن تقرير مصير النص الأدبي، ومثلما هي أساسية كفعالية ثقافية،فإن نوعيتها مهمة أيضا، ولذلك فمن الضروري أن نعرف أي نوع من القراءة يستطيع أن يحقق القراءة بكفاءة عالية(10).

خلاصة

بشكل عام يمكننا القول أن الهيرمينوطيقا أداة منهجية، تسعى إلى تسليط الضوء على النص باعتباره معطى في خبرتنا المباشرة كما أن النشاط التأويلي لا يعني القراءة الواحدة بل هو تكامل مجموعة قراءات ... التأويل في الحقيقة تأويلات (11) وصحة التأويل أمر لاحسم فيه، وقواعد الصحة تقتضي وضع قوعد الفساد كما يؤكد إيكو(12). وعليه يكون التأويل النفسي للنص خيارا تحكمه علاقات اتساق مبنية على أساس الشرح والتفسير لاستيعاب مجمل أبعاد النص.

الهوامش

*فريدريك دانيال إرنست شلير ماخر : 1768- 1834 لاهوتي وفيلسوف وعالم الكتاب المقدس، يشكل عمله جزءا أساسي في مجال علم التأويل الحديث.

01. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ-1979م.

02. بارث، رولان: النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب، مراجعة محمد برادة، مجلة الكرمل، العدد 2، 1984م.

03. قباوة، فخر الدين: محاضرات في علوم اللغة، الدراسات العليا، السنة الجامعية 1984-1985م.

04. نفسه.

05. مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط3، 1992م.

06. محمد شوقي الزين: تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2002.

07. مصطفى كيحل: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، أطروحة دكتوراه، جامعة قسنطينة، السنة الجامعية.

08. دايفيد جاسير: مقدمة في الهيرمينوطيقا، ترجمة: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2007.

09. عبد الحميد هيمة: القراءة التأويلية: الآليات والحدود، الملتقى الوطني الأول في الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة والأدب جامعة ورقلة 2011.

10. نفسه.

11. بول ريكو: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، المركز العربي الثقافي لبنان، 2003.

12. أمبيرتو إيكو: التأويل بين السمياءيات والتفكيكية، المركز الثقافي العربي لبنان، 2002.